

الكاتب: د. شويشي زهية
أ. أم لرقاب سمية
جامعة محمد أمين دباغين. سطيف 2
إطار المحلية عبر التاريخ
البريد الإلكتروني: tahahatemtaha39@gmail.com
تاريخ الإرسال: 2019/06/15 تاريخ القبول: 2019/09/14 تاريخ النشر: 2019/12/31
الاتجاهات النظرية ودراسة الخصائص التاريخية للعمارة المدنية في إطار المحلية عبر التاريخ

Theoretical trends and the study of the historical characteristics of civil architecture within the local framework through history

الملخص بالعربية:

تسعى هذه المقالة إلى رصد الخصائص العمرانية والتاريخية للمدن والحوضر القديمة وما عرفته عبر تاريخها ثم استخلاص عوامل ومظاهر بروز العمران المحلي، وقبل البدء في تناول هذا الموضوع ينبغي الإشارة إلى موقف علم الاجتماع من دراسة العمران في تجلياته المكانية "أي باعتباره عمارة" وموقفه من دراسة ما يمكن تسميته بالنزعة المحلية. حيث يمكن القول بأن علم الاجتماع لم يهتم بدراسة التجليات المكانية للعمران قدر ما اهتم بدراسة تجلياته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية. وهذا يعد تقصيراً بالتأكيد، ذلك أن العمارة تدخل في نطاق اهتمام علم الاجتماع من زوايا عدة، لعل أهمها الجانب الفني والثقافي كونها نتاج للمجتمع وثوابته الحضارية، وكونها أيضاً تلعب دوراً هاماً في صياغة الهوية الفردية والجماعية، فالعمارة لا شك بما تشتمل عليه من مكان ومساحة وموقع للسكن وطراز للمباني تلعب دوراً هاماً وأساسياً في حياة الإنسان الاقتصادية والاجتماعية. أما فيما يتعلق بموقف علم الاجتماع من دراسة ما هو عمران محلي فإنه يرتبط بما عرفه المجتمع عبر مراحل تاريخه الطويل من نماذج ازدهرت وتراجعت (1). وإذا رجعنا إلى الموضوع الأساسي لوجدنا أن هناك سؤالاً يطرح نفسه، وهو ما أسباب الجمع في موضوع واحد بين العمران في ضوء رؤية تاريخية وبين التحولات التي يشهدها هذا العمران.

الكلمات المفتاحية: المدن القديمة، الحضارات القديمة، الحضارة العربية الإسلامية، مدن حوض النيل، مدن الحضارة الإغريقية، مدن الحضارة الإسلامية، مدن الحضارة الرومانية.

Abstract :

This article seeks to monitor the urban and historical characteristics of ancient cities and cities and what they have learned throughout their history and then draw the factors and manifestations of the emergence of local architecture. Before starting to address this subject, we should refer to the position of sociology from the study of urbanization in its spatial manifestations, It can be called localism. It can be said that sociology did not care to study the

spatial manifestations of urban development as much as he cared to study its economic, social, political and cultural manifestations. This is surely a shortcoming The architecture is part of the attention of sociology from a number of angles, the most important of which is the artistic and cultural aspect as a product of society and its cultural foundations. It also plays an important role in the formulation of individual and collective identity. Architecture, no doubt including its location, space, location, Important and fundamental in human economic and social life. As for the attitude of sociology from the study of what is Imran local, it is related to what the society has known through its long history of models flourished and declined. If we return to the basic subject, we find that there is a question arises, which is why the combination in one subject between urbanization in the light of a historical vision and the transformations witnessed by this architecture.

key words : Ancient Cities, Ancient Civilizations, Arab Islamic Civilization, Cities of the Nile Basin, Cities of Greek Civilization, Cities of Islamic Civilization, Cities of Roman Civilization

مقدمة:

في ظل الحداثة ومظاهر التحضر باتت العمارة تشهد ذوبان رغم رغبة الكثيرين في مقاومة هذه العملية ودعوتهم إلى ضرورة البحث عن جذور العمارة، وما تحمله من سمات اجتماعية وثقافية والعودة إلى ما كانت عليه. من خلال توظيف كل العناصر والخصائص الفعالة في ذلك منها إشباع الحاجات المادية والفكرية والروحية في العمارة القديمة.

كما أن تيار الحداثة قد خلق اتجاهين متصارعين فيما يتعلق بنوعية العمارة الواجب إنشاؤها في كل مجتمعات العالم، اتجاه يدعو إلى ضرورة الأخذ بالعمارة الحديثة التي تتناسب ومقتضيات العصر (2) واتجاه آخر يدعو إلى ضرورة الأخذ بالعمارة البيئية والمحلية والشعبية والتقليدية التي تراعي الخصوصيات التاريخية والثقافية والاجتماعية والبيئية، وليس ثمة شك في أن مسألة العمران في الجزائر تعرف حالياً نفس التجاذب، مما يستوجب الجمع في هذه الدراسة بين الإشارة إلى الخصائص التاريخية لهذا العمران وبين التغيرات التي طرأت عليه، واتساقاً مع كل ما سبق يحاول هذا الفصل تحقيق أهدافه، بالاعتماد على التحليل الإيستيمولوجي، فضلاً عن الشواهد التاريخية لبعض الحضارات كالعمارة التي عرفها الرومان واليونان والمصريين القدماء، ونعرض هنا الرؤية النظرية للعمران، في ظل الحضارات القديمة

والسياق الذي ظهرت فيه نزعتها المحلية في البناء خصوصاً الحضارة الإسلامية كونها تتشابه في خصائصها مع موضوع هذه الدراسة، ومن هنا يمكن القول على الرغم من كثرة التيارات النظرية التي تتناول العمران فإنه سوف يتم تناول هذه الخبرة على أنها محصلة نهائية للتفاعل بين الإنسان من ناحية والظروف " الجغرافية والمناخية والاجتماعية والسياسية والثقافية السائدة في تلك المجتمعات من جهة ثانية" (3).

1. الاتجاه النظري ودراسة المدن القديمة:

ارتبطت مسألة نشوء المدن بإشكالية "التعقد الاجتماعي" والظروف المتعددة المرتبطة بها كعادات وتقاليد المجتمع والمناخ وطبيعة الأرض والثروات الطبيعية، وهذا دافع ساعد على ظهور المدن، والقول هنا بظهور المدن في التاريخ سببه الرغبة في الاستقرار يرجع إلى ما اصطلح عليه من طرف "جوردن تشايلد" بثورة العصر الحجري الحديث، تعبيراً عن الأهمية التي شكلتها هذه الحقبة في ظهور المدن، مع أننا نعترف في نفس الوقت بأن أشكال الحياة في العصور الحجرية الحديثة لم تنتشر في مكان واحد كما اعتقد "جوردن تشايلد"، رغم كونه عصرًا عرف بحق ثورة في إنتاج التجمعات البشرية القائمة على فكرة الاستقرار، وطبعاً يقودنا هذا إلى طرح جملة من التساؤلات أبرزها:

- ما جوهر العوامل التي أفضت إلى ظهور المدن؟
 - ما هي العوامل المتسببة في ظهور أولى أشكال المجتمعات المعقدة في المكان والزمان؟
 - ولماذا تظل مسألة القراءة في المدن صعبة والإجابة عنها معقدة؟
- يدرك العلماء من خلال هذه الأسئلة أن الموضوعات المادية كالعمران وما خلفته الحضارات ليس أكثر من مجرد انعكاسات غير دقيقة للأنظمة الاجتماعية والثقافية، لذلك عرّف العلماء "المدن" بأنها أكثر الاتجاهات دينامية وارتباطاً بنشوء حياة المدينة، مع أن ليس كل الديناميات أفرزت مدناً حقيقية، مما يدل على أن المدينة حقيقة قديمة جداً، ومعاصرة لبدء الحضارة، ومن ثم أصبح تاريخ المدن هو تاريخ التفاعلات والأفكار والسلوكيات والاعتقادات والقوة، وهو ما عبرت عنه في مسيرة الحضارة وما انبثق عنها من سمات مادية وروحية واجتماعية وسياسية، أفرزت كما قلنا سابقاً مجموعة قيم وعادات وتقاليد وأفكار منظمة تعددت أشكالها ومضامينها، طبعاً يدفعنا هذا إلى إيجاد تفسيرات شاملة للتعقد الاجتماعي والثقافي والعمراني الذي انطوت عليه منذ ظهورها (4) هذا يتطلب منا محاورة الواقع الذي نشأت فيه

والذي مهّد لظهور الكثير من الحضارات، لأن من الضروري ربط الجوانب المادية للتمدن بالخصائص الاجتماعية والأبعاد الثقافية وما لها من دور في تشكيل الإطار الحياتي لسكان المدن. تستلزم العملية تفسير ظاهرة ومفهوم المدن ودمجه بالمتغيرات الاجتماعية والثقافية والعمرانية انطلاقاً من فاعلية الأنظمة المختلفة.

ونناقش مسألة المدن من منطلق إخضاع فكرة ظهورها إلى المراجعة التاريخية ذلك أن الجانب الحاسم لهذه الظاهرة لن يكون مجرد وجود أو عدم وجود منشآت وصروح معمارية ضخمة أو سمات أخرى، وإنما يتوجب التعبير عنه من خلال علاقة أنماط سلوكية بالتمدن وبالسمات الثقافية للاتصال، كذلك بالموضوع العام للدراسة ونطاقاته وعلاقته بميدان المعرفة التراكمية، فالبحث في تاريخ المدن بالتعرض لماضيها يعتبر مدخل مهم في هذه الدراسة، من خلال التحقيق في ظهورها والعوامل التي ساعدت على ذلك، وكذا الأدوار التي قامت بها، إذ أن ذلك سيفيد في تتبع مسيرة تطورها ضمن أطرها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وهل أن هذا التطور التاريخي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي هو الذي يعكس حضارة البشرية قديماً وحديثاً. (5) وسنستعرض بعض المناطق من العالم التي كانت سبباً في ظهور المدن وما صاحبها من انتشار هائل، لكن الخلاف القائم بين العلماء والمؤرخين هو حول أعدادها ومظاهر التحضر التي شهدتها، وعوامل بروز تلك المظاهر، هل هي كما أشار إليها "جوردن تشايلد" استخدام الحيوانات والاعتماد على الإنتاج بمختلف أشكاله من زراعة وحرف واستخدام وسائل الري فكلها كانت حوافز حسب رأيه، وهو نفس الخلاف الدائر بين مدن العصر الحالي، كما ظهرت أسئلة عن أدوار المدن والهدف من وجودها؟ هل هي الأدوار الاجتماعية التي ساعدت في تحديد عنصر التنظيم الاجتماعي وإسهامه في نقل الكثير من القيم الثقافية، وبلورة جملة معالم حضارية تميزت بالإنسانية والتكامل، وربما الميزات الروحانية للمدن القديمة دلالة على ذلك (المعابد المساجد، الكنائس، القلاع، القصور).

لقد ساعدت هذه التساؤلات على إثارة الكثير من الجدل بين المؤرخين وعلماء الآثار والأنثروبولوجيين بسبب غياب المعلومات الدقيقة حول تلك الفترة ومحدودية العلوم وطرائق البحث الاجتماعي حولها. لكن في نفس الوقت يرى أصحاب المذهب الإنشائي أن قدرة الإنسان القديم على الابتكار هو من ساعد في ظهور المدن، وإن اختلفوا فيما بينهم حول أصل ونشأة الحياة الحضرية، أين ظهرت أولى الحواضر في العالم "الشرق الأوسط، أوروبا، آسيا... أمريكا الوسطى" يرى البعض منهم أنها نشأت في حوض نهر النيل، والبعض الآخر رأى أنها انطلقت

من الهند أو من منطقة ما بين النهرين "العراق حالياً" وهل اتسمت أثناء ظهورها بخصائص ومقومات الحياة الحضرية. استمر هذا الجدل بين العلماء إلى أسباب قيام حضارة الصين ومدى ارتباطها وامتدادها إلى حضارات سابقة مع التركيز على مدى استقلاليتها ثقافياً واجتماعياً. لكن المتشعبيين بقراءة حضارات الشرق القديم يرون أن جل الخصائص الحضرية انتشرت في منطقة الشرق وتمركزت فيها، حاملة عناصر ثقافية محلية هي التي مهدت لبروز مدن وحضارات مميزة في بلاد الشرق وأولى تلك الحضارات المتمدنة حضارة ما بين النهرين MESOPOTAMIA المكون الرئيسي لحضارات العالم. (6) فكيف نشأت هذه الحضارة وما هي مؤشرات تحضرها وتطورها؟ ونحن سنجيب كما أجاب العلماء الذين رأوا أن أسس تكون الحياة الحضرية في المدن القديمة قام على توفر الشروط التالية:

- توفر الأساس الإيكولوجي.
- وجود تكنولوجيا متقدمة في المجال الزراعي وغير الزراعي.
- وجود تنظيمات اجتماعية معقدة.
- وجود أنظمة سياسية متطورة.

كما كانت من أهم سمات التحضر المبكر تأسيس المدن لأغراض الدفاع والعبادة والتجارة وهي نشاطات ميزت ولفترات طويلة مدن مصر، اليونان، الهند، بابل، إلى جانب ما يناط بها كمراكز سياسية تؤدي مهام إدارية وعسكرية. ما حولها لأن تكون مقراً للصفوة الحاكمة التي استحوذت على القوة العسكرية والسلطة الدينية والاقتصادية. فكان من الطبيعي أن تنعكس خصائص الأساس الوظيفي لمدن العصر القديم على طابع بنائها الإيكولوجي وعلى نوعية الترميط المكاني للسكان والنشاطات المختلفة من حيث الموقع، ولعب الاقتصاد والسياسة والأنظمة الاجتماعية دوراً ملحوظاً في تحديد مواقع المدن المبكرة، ويمكن تتبع ذلك بسهولة في المدن التي نمت وتطورت على طول خطوط التجارة البرية والبحرية كإسطنبول وسمرقند، وقد أفاد موقعها كثيراً في ازدهارها تجارياً، ومن حيث الترميط الإيكولوجي تميزت مدن العصور القديمة بخاصية العزل والاستقلال الفيزيقي، فقد كانت المدن المحاطة بالأسوار العالية هي النمط الإيكولوجي الشائع في تلك المرحلة المبكرة من النمو الحضري فقد كانت الأسوار تقوم بوظائف دفاعية، وطبيعة المرحلة هي من فرض ذلك، ليس وحده الجانب الدفاعي من أثر بناء المدن، بل تنظيم النشاط التجاري من المدن وإليها لعب دوره أيضاً، ووجود الجدران التي تفصل أحيانا المدن كان تجسيدا واضحا لعمليات العزل الإيكولوجي والثقافي والمهني وحتى

القراي للسكان.(7) أما نمط التوزيع السكاني والأنشطة داخل المدن فتأثر بمتطلبات التنظيم الاجتماعي والاقتصادي، إضافة إلى الأساس الديني والمقوم السياسي الذين احتلوا مركز الصدارة في الأساس الوظيفي للمدن فتمركزت الأنشطة في منطقة الوسط. وبالنظر إلى الشرط الإيكولوجي (ECOLOGY) نلاحظ أن ظهور المدن القديمة في العالم قد ارتبط بصورة مباشرة بتوفر المناخ والبيئة الجغرافية الصالحة للنمو البشري والحيواني، أي أن توفر الشرط الإيكولوجي يعتبر ضرورة حتمية لمواجهة النمو السكاني وتطور تركيبته، إضافة إلى ما يلعبه العامل التكنولوجي (TECNOLOGICAL FACTOR) في تطوير وتحديث الحياة الاجتماعية في كثير من مناطق العالم، كما أنه في الوقت نفسه يرتبط وجوده بالعامل الإيكولوجي الذي يعتبر القاعدة الأساسية في أصل تكوين الحياة واستمرارها، وتجدر الإشارة إلى أهمية المصادر المائية في نمو وتطور الحياة الحضرية، فبالرغم من أن تكنولوجيا الحضارات القديمة كانت بسيطة جدا مقارنة بتكنولوجيا العصر الحديث إلا أن توفر المصادر المائية من أنهار وغيرها لعبت دوراً أساسياً في ظهور المدن بصورة تلقائية، حيث كان الاستقرار السكاني مكثفاً أينما وجدت الأنهار التي كانت توفر حاجة الزراعة وبعض الأنشطة الاقتصادية الأخرى من المياه، وكان ذلك التوافر متواصلاً بتواصل الحياة.(8) كما لعبت مصادر المياه أدواراً رئيسية في الثقافات وامتزاج الشعوب، اجتماعيا واقتصاديا متماثلا وحفزت تلك المصادر العقل البشري على الخلق والإبداع التكنولوجي، الذي تمثل آنذاك في وسائل المواصلات ونقل الإمدادات الغذائية وتبادلها، خاصة في قارة آسيا وشمال إفريقيا كما ساعد وجود تلك الأنهار على تطوير وتنمية الحياة الاقتصادية والاجتماعية، التي نتج عنها آنذاك خصائص ومقومات حضرية متلائمة مع طبيعة الخصائص الإيكولوجية والجغرافية المتوفرة بصورة طبيعية وبتوفير العناصر الأساسية من الغذاء. استطاع الإنسان أن يتحكم في زراعة القمح والشعير والبقول مستخدما ما توصل إليه من تكنولوجيا التخزين للحفاظ على المنتوجات الزراعية من أجل تلبية احتياجات سكان المدن كما قامت صناعات متنوعة، صاحب ذلك تطور نظام المواصلات والتنقل في المدن وانتشارها في كثير من المناطق الحضرية الأخرى، وأدى إلى تنشيط حركة التبادل التجاري بين المدن والمناطق الريفية داخل البلدان وخارجها، فكانت بداية العلاقة بين الحركة الصناعية والنشاط الاقتصادي، ونقطة البداية لظهور نوع من الحياة الحضرية المركبة التي أخذت تتزايد تلقائيا حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن، وساهمت التكنولوجيا بأدواتها المختلفة في تزايد الكثافة السكانية في المدن عن طريق

هجرة أعداد كبيرة من سكان القرى والأرياف إلى المناطق الحضرية، والتي تعرف اليوم بالمدن التجارية والصناعية في شرق وغرب العالم. (9) أما الأساس الثالث لقيام حياة حضرية متميزة في المدن القديمة فإنه يكمن في وجود نظام اجتماعي متطور خاصة في مجالي السياسة والاقتصاد، فالحياة الحضرية في المدينة تتطلب تحقيق نظام اقتصادي يوفر للسكان متطلبات الحياة. (10)

2. أهم مدن الحضارات القديمة:

1.2. مدن حضارة ما بين النهرين:

اتفق جميع الاختصاصيين في مجالات المعرفة على أن المدن ظهرت وتطورت في منطقة ما بين النهرين، إلا أن تاريخ ظهورها لم يتم الاتفاق عليه، الأمر الذي دعا علماء الاجتماع الأوائل إلى الاستعانة بعلماء الآثار والتاريخ، ليؤكدوا على أن المدن ظهرت منذ حوالي 4000 ق.م. واستمر الجدل حول تحديد وتعريف المناطق الحضرية وفترة نشأتها لمدة طويلة، إلا أن العلماء اتفقوا على أن أول تجمع حضري للسكان قد وجد بما يعرف بمنطقة الهلال الخصيب والمنطقة التي تسمى اليوم بلاد الشام "الأردن، العراق"، إذ كشفت الدراسة التي قامت بها "كينيون" (KENYON) أنّ أول وأكبر تجمع سكاني كان يعيش في بيوت من الطين محاطة بأنسجة حائطية استخدمت للأغراض الدفاعية (11)، كما حددت في دراستها تاريخ بدء الحضارة الإنسانية بحوالي ثمانية آلاف عام قبل الميلاد في تلك المنطقة. إلا أن "ويلر" في تقييم له لدراسة "كينيون" رجّح أن يكون تاريخ بدء الحضارة بين خمسة أو ستة آلاف عام ق.م وذلك من خلال المدن الأثرية التي استطاع التعرف عليها في بلاد الأردن.

أما "جوردن شاليد" فقد اتخذ موقفا محايدا من ذلك الجدل، ورأى أن تاريخ بدء الحضارة الإنسانية ارتبط بوجود كثافة سكانية معينة وبوجود الخدمات العامة، مؤكداً على الكتابة التي تعتبر من العوامل الهامة في ظهور المدن والجماعات البشرية المنظمة والمهارات المهنية. أي ظهور ما يعرف بالتخصص وتقسيم العمل، كما أكد على أن نظام الكتابة هو العامل الحاسم في اعتبار المدينة نواة الحضارة الإنسانية التي تميزها عن بقية التجمعات السكانية. ويعتبر "كينجزي ديفيد" (K. DAVIS) أن ظهور المدن بدأ ما بين 6000-8000 قبل الميلاد وجاء ليؤكد مرة أخرى أن ظهور المدن الحقيقية كان قد بدأ قبل 3000 آلاف عام ق.م. ولم يكن "ديفيز" واضحاً في استخدامه وتعامله مع مفهوم "المدينة" إلا أنه يعترف ضمناً بأن المدينة الفعلية ظهرت مع بداية معرفة الإنسان للقراءة والكتابة. ومن بين المدن المبكرة التي عرفت في التاريخ

القديم مدن "إيريك" (ERECHE) "إريدو" (ERIDU)، "أور" (UR) "لاجاش" (LAGASH) "لارسا" (LARSa) على ضفاف نهر الفرات ومدينة "كيش" (KISH) على ضفاف الجزء الشمالي من النهر، وهي مدن تؤكد لنا أن عمليات التحول الاجتماعي والاقتصادي قد حدثت هناك، أي بمعنى أن انتقالاً من الوضعية الريفية الزراعية إلى الوضعية الحضرية قد أخذ مكانه في عدد من المدن في تلك المنطقة وهي مدن عرفت لأول مرة نوعاً من الاستقلالية في أنظمتها السياسية مكونة بناء اجتماعياً، وكما هو الحال في المدن الحديثة عرفت المدن القديمة الخبرة والمهارة في تصنيع الأشياء. وإذا رجعنا إلى المظهر الشكلي للمدن القديمة فإن التاريخ يحدثنا عن وجود المدن داخل أسيجة حائطية حولها من جميع الجوانب، ومن أبرز معالم تلك المدن احتوائها على معابد لممارسة الشعائر والطقوس الدينية. وما يميز المدن القديمة عن الحديثة بناء البيوت بشكل متناثر وغير منظم يفصل بينها مساحات كبيرة من الأراضي. كما اختصت المعابد والمباني الإدارية بمساحات واسعة من الأراضي تحيط بها من كل الجهات. (12) أما الطرق والشوارع فقد كانت ضيقة للغاية مقارنة بالطرق والشوارع التي تتميز بها المدن الحديثة، ودلت الحفريات بأن معظم البيوت والمنازل بنيت على مستوى منخفض بالنسبة لطرق وشوارع المدينة، الأمر الذي جعل السكان يبنون مداخل عالية تتلاءم ومستوى ارتفاع الطرق والشوارع. كما كانت المدن القديمة تشتمل على بعض المراكز التجارية التي اتخذت للتبادل التجاري.

أما عن الكثافة السكانية لتلك المدن فيحدثنا "فرانكفورت" أن المدينة القديمة كانت تتكون من خليط سكاني يجمع بين الحرفيين والتجار والإداريين والجيش والمزارعين، الذين يزاولون نشاطهم الزراعي في المناطق المجاورة للمدينة، ويؤكد "فرانكفورت" على أن فئة المزارعين كانت تؤثر تأثيراً واضحاً في تقدير سكان المدن وكثافتها. (13)

وقد قدر "تشايلد" (CHILDE) أن سكان المدن القديمة كان يتراوح عددهم بين 7000-20000 بما في ذلك المشتغلون بالزراعة، ويذهب "فرانكفورت" (FRANKFORT) "وولي" (WOOLLEY) إلى القول بأن عدد سكان المدن قد تطور تطوراً كبيراً، إذ وصل في مدينة "أور" إلى 24000 و19000 نسمة في "لاجاش" و16000 في مدينة "خفجة"، ومع بداية القرن العاشر قبل الميلاد وصل عدد سكان مدينة "أور" 34000 نسمة وهو عدد يضم سكان الأرياف المحيطة، مع العلم هذه الأرقام هي من تخمين المفكرين الأوائل، إذ لا يمكن اعتمادها بالنسبة للدراسات المقارنة على اعتبار أنها تفتقر للموضوعية في التقدير وإلى المنهجية في الدراسة

والتحليل، لكن ظهور المدن في منطقة ما بين النهرين كان له الفضل في انتشار المدن في مناطق أخرى من العالم.

2.2. مدن حوض النيل:

في الوقت الذي كانت فيه مدن منطقة ما بين النهرين تمر بمرحلة تطورية ملحوظة قبل 3500 عام قبل الميلاد، بدأت مجموعة من القرى الكبيرة المتناثرة تستقر حول دلتا حوض النيل وكانت تلك القرى تمثل وحدات سكانية مستقلة عن بعضها البعض، اختصت كل مجموعة بممارسة النشاط الزراعي "القمح والشعير" مستغلة مياه النيل في الزراعة وفي أغراض حياتية أخرى ومعتمدة على الحيوان في التنقل. وتدل الوثائق التاريخية بأن حضارة نهر النيل نشأت عام 3100 قبل الميلاد وهي المعروفة بالحضارة الفرعونية، والتي ظلت معالمها ثابتة إلى يومنا هذا، إلا أن الوثائق الأثرية حتى عام 2000 قبل الميلاد. لم تبرز معالم المعابد والأضرحة التي شيدت واعتبرت كرمز للحضارة. (14) ولم تشر الوثائق إلا إشارة عابرة لبعض المدن الفرعونية التي بنيت من الطين واندثرت بفعل العوامل البيئية، ولم يبق منها إلا المدن التي بنيت من الحجارة أثناء تشييد الأهرامات. ومنذ تلك الفترة أخذت المدن في الانتشار في منطقة حوض النيل وتميزت بتركيبة عمرانية وبشرية واضحة المعالم، ويرى بعض المفكرين أن ظهور العمارة في مصر لم يصاحبه أي نوع من النشاط الاقتصادي المكثف في أيّ من المراكز الحضرية التي تأسست آنذاك باستثناء العاصمة، وكانت تلك الأماكن عبارة عن مراكز تجارية لتسويق المنتجات الريفية، ويؤكد "وولي" (WOLLEY) على أن العاصمة نفسها لم تشهد حياة حضرية حقيقية حيث لم يوجد آنذاك أي نوع من التنظيم الحضري، وأشارت الكثير من الدراسات التاريخية إلى أن مدن الحضارة المصرية اكتسبت خصائصها المميزة من حضارة ما بين النهرين. (15)

3.2. مدن الحضارة الإغريقية:

في العصر الإغريقي بدأت نظريات العمارة والتخطيط في الغرب تأخذ إطارها الفلسفي، وقد استمدت مضامينها الهندسية والجغرافية من الحضارة المصرية القديمة، أين ظهر التخطيط الشبكي للمدينة الإغريقية وذكر أرسطو بأن هذا النظام كان من صياغة المهندس الإغريقي "هيبو داموس" 500 ق.م. وكان من أهم العوامل التي دفعته إلى ذلك توصيات الأطباء، حيث أوصى "هيبو قراط" بضرورة تخطيط المدينة بحيث يمكن للمساكن أن تدخلها الشمس، وجاء على لسان أحد الأطباء الإغريق أن ذلك يتم لو أنشأت الشوارع بطريقة متقاطعة وبزايا

قائمة ومواجهة للجهات الأصلية فتصبح المدينة حسنة التهوية وتدخل مساكنها الشمس، وبذلك صاغ "هيبو داموس" أصول تخطيط المدن للإغريق، الذي اشتهر باسم التخطيط الشبكي المتأثر بتوجيهات هيبوقراط، تابع المهندسين في عصر الإسكندر المقدوني الأسلوب ذاته في تخطيط المدن التي أنشأها في فتوحاته مثل مدينة الإسكندرية. كل تلك المؤشرات دلت على الاهتمام الكبير بالنواحي المناخية والصحية في تخطيط المدن الإغريقية لتحقيق التهوية والسماح بدخول الشمس للمساكن، وهو نموذج مقتبس من العمارة اليونانية، مع خصوصيتها التي تناغمت مع عادات المجتمع الإغريقي ومعاييره الاجتماعية وقيمه الثقافية.

(16)

4.2. مدن الحضارة الرومانية:

تأثر الفن المعماري الروماني بالتقاليد السائدة في الشرق من خلال مؤشرين، الأول ما ورثوه عن "الأتروسكيين" الذين استخدموا القباب والعقود في بناء المنشآت، والتي أخذوها أصلاً عن الفن المعماري لبلاد الرافدين، وما أخذوه من تقاليد العمارة الشرقية التي وجدوها في سوريا بعد احتلالهم لها والتي امتازت بعدة خصائص أهمها:

— استعمال الرومان طرز العمارة الإغريقية "الدوري، الأيوني، الكورني" إلا أنهم أدخلوا عليها بعض التعديل، مع ملاحظة أن الطراز الروماني كان أكثر رشاقة من الطراز الإغريقي.

— يقوم المنزل الروماني على الطريقة العمرانية لبلاد الرافدين، وهي أن تفتح الغرف بنوافذها وأبوابها على الفناء الداخلي مع عدم وجود للنوافذ الخارجية.

— في البداية أقام الرومان عمارتهم بالحجر المنحوت، لكن سرعان ما اهتموا إلى أنواع أخرى كالملاط الذي يشبه الإسمنت والذي بنوا منه الجدران.

هذه التقنيات ساعدت الرومان على تأسيس مدن في كل البلدان التي أخضعوها لسلطتهم متأثرين بالتخطيط "الهيبيودامي الإغريقي" من خلال بناء شبكة من الشوارع المتعامدة على هيئة الفن الكلاسيكي، امتداداً للحضارة الرومانية ظهرت عمارة سميت العمارة البيزنطية والتي ارتبطت فيها المعماري بالديانة المسيحية، مع أن العنصر المسيحي البيزنطي لم تظهر إلا بعد أربعة قرون من ظهور المسيحية حينما غدت دين الدولة الرسمي في عهد الإمبراطور "تيو دوسيوس" 395 م. والفن المعماري البيزنطي هو الفن الروماني الممتزج بالروح المسيحية والتقاليد الشرقية السورية والساسانية.

5.2. مدن الحضارة الساسانية:

كانت خريطة بلاد فارس قديماً تشمل إيران الحالية وأفغانستان وبلوخستان، تأثرت في بداية ظهورها بعمارة بلاد الرافدين في الغرب وبالعمارة الفارسية في الشرق، وباعتبار العمارة فن، فقد شكل الفن الساساني آخر مراحل تطور الفنون الفارسية "الأخمينية والبارثية" واثرة الحضارات "الرافدية" التي اقتبست الكثير من الوحدات والأشكال من احتكاكها بالشعوب التي استعمرتها في بابل وآشور ومصر... إلخ، الشيء الذي أمكنها ذلك من إظهار أذواق الفن الفارسي الساساني الذي وصل أوجهه في القرن الرابع الميلادي، وبشكل عام فإن الفن الساساني يعتبر استمراراً للتقاليد الفنية العراقية القديمة. (17)

3. الاتجاه النظري ودراسة المدن الإسلامية:

البحث في العمارة والمدن الإسلامية عرف جدلاً منهجياً منذ القدم تميز غالبه بالعقم، كون المدينة الإسلامية ومن خلالها العمارة الإسلامية تمتاز بخصوصيات ودلالات مجالية ورمزية، منبع تلك الدلالات هي منظومة الدين والسلوكيات المجتمعية والأنماط الاقتصادية والتمثلات الذاتية. وقبل هذا وذاك تعد العمارة بشكل عام والإسلامية بشكل خاص بمثابة حقل للفعل الإنساني المعبر عن أنماط التصرفات والأفعال الإنسانية، تصرفات كانت بمثابة الأساس في تحديد ملامح الحضرية، وإن كان الاهتمام بدراسة العمارة والمدن بدأ منذ أقدم العصور بسبب مركزيتها الحضارية وتركزها الحضري، وما تنطوي عليه من خصائص سياسية واقتصادية وسمات اجتماعية وثقافية والشيء الذي ساعد على ظهورها هي المعطيات الفلسفية والأثرية والتاريخية والبيئية التي أبرزت دينامياتها وتحولاتها منذ أقدم العصور "في إطار الزمان والمكان". وإذا كان هدفنا إبراز مفاهيم عن المدن الإسلامية ونشأتها وملامحها المرفولوجية والاجتماعية والثقافية وغيرها، فالجدير بالذكر قبل ذلك هو تسليط الضوء على العمارة والعمران الذين ارتبطا ظهورهما بعوامل ومؤثرات البيئة، المساهمة الكبرى في تشكيلهما، عمارة ساعدت الإنسان على العمل ومنحته القدرة على تصميم المباني وتشكيل أنماط الحياة، وهذا بالتحديد ما اتصفت به العمارة الإسلامية التي تبلورت نتيجة لسيطرة العوامل الإيكولوجية والبيئية والمناخية في كل مكان ارتبط اسمه بالحضارة الإسلامية وعمارتها. الأكيد أنها لم تتأتى صدفة بل لخصوصية المكان الذي ظهرت فيه "جل الأماكن التي عرفت نماذج عمرانية إسلامية تتميز بمواصفات بيئية متشابهة" مناخ حار وجاف "ففرص أنماط عمرانية متشابهة ومقاومة لظروف البيئة. ليست وحدها من ساهمت في إنتاج العمارة

الإسلامية بما يتوافق وخصوصياتها، بل لعبت عوامل أخرى أدواراً في تحقيق تلك العمارة، عوامل لا تقل أهمية عن البعد الإيكولوجي أبرزها العامل الديني الذي طبع شكل العمران في العالم الإسلامي لما له من تأثير فكري على المجتمع وترجمته لتطلعاته، ويؤثر العامل الديني على الطابع العمراني للمباني في أي مجتمع بصورة كبيرة ربما حتى أكبر من عوامل حضارية أخرى التي تتبع في تحولاتها التقلبات التي يتعرض لها المجتمع في حال عدم ترجمتها لتطلعاته، هذا يدل على ثبات العامل الديني وعدم خضوعه المباشر لمختلف الأشكال الاجتماعية وبالتالي اتسامه بالثبات النسبي.(18)

وكما هو معروف ساهم ظهور الإسلام بمختلف تشريعاته في تفصيل حركة حياة المجتمعات الإسلامية، باعتباره ديناً مدنياً أعطى بتعاليمه ميزات خاصة للعمارة والمدن الإسلامية عدت كلها خصائص حضارية، حيث رأى تيار من العلماء أن سماتها اقتبست من تعاليم الدين وأصول الفكر والفقه الإسلامي، الذي لطالما ساهم في تطوير مظاهر الحياة الحضارية عند المسلمين، كونها تعاليم تدور في فلك حياة المجتمعات الإسلامية خصوصاً التي تعيش في المدن. انتشرت هذه الحالة لفترات طويلة لكن ما لبثت أن حلت محلها تشريعات وقوانين أخرى تميزت بوضعيتها، ما أثار تساؤلات على الصعيد الفكري ومحاورات عديدة اجتهد العلماء في الإجابة عنها وعن تلك التغيرات التي طرأت عليها، بدءاً من اختلاف آراء العلماء في فكرة العمران الإسلامي كتسمية حيث رأى البعض أنه لا يجوز أن نصف المباني والعمائر التي وجدت في مختلف مناطق العالم الإسلامي عبر التاريخ بأنها عمائر إسلامية، بسبب أن الكثير من العلماء رأوا أنه لا علاقة بين الدين والعمارة، ولو كان الأمر كذلك لنطبق ذلك على غيرها من العمارة "بوذية، هندوسية، مسيحية، يهودية" لأن أصحاب هذا التيار مقتنعون بأن مصدر البناء والتشييد لا ينبع من التعاليم الدينية وحدها بل من تعاليم أخرى اجتماعية واقتصادية وثقافية، ربما يكون أصحاب هذا التيار محقون لأننا أول ما قلنا: "العمارة الإسلامية ارتبط ظهورها بالعوامل الإيكولوجية". لكن في نفس الوقت ليست وحدها من ساهم في ظهور العمارة والمدينة والتمدن لدى المسلمين(19)، بل الدين كان له دور في ذلك أيضاً. اختلاف الآراء وضع فكرة نشوء العمارة الإسلامية بين محكين، محك يرى أنه لا توجد علاقة بين الدين ونشوء وتطور المدن الإسلامية، وهذا ما أعطاهما النظرة الشكلية لأنه وبموجب هذه العلاقة تصبح العمارة الإسلامية مجرد مباني أثرية تتسم بمواصفات وخصائص فنية زخرفية، في حين يرى التيار المدافع عن فكرة علاقة العمارة والتمدن في الإسلام بالتعاليم الدينية بأنه من المستحيل

فهم العمارة الإسلامية بمعزل عن الدين، فهو من وجهة نظرهم يمثل جوهر العمران الإسلامي ومصدر إلهامه الأساسي والعامل الأول في بناء شخصيته المتميزة والمتفردة عن باقي الطرز المعمارية، طبعاً وجهة نظر هذا الفريق تقف عند فكرة أن الإسلام كدين شامل وكامل هو من حدد أطر العلاقة بين العبد وربّه، وبينه وبين مجتمعه، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة في حياة الإنسان المسلم إلا ووضع لها إطارها النموذجي الواجب الإتيان وعلى رأس تلك الأطر، العمران والبناء والتشييد والهندسة. فالإسلام ما كان ليهمل مسألة تنظيم حياة ومعيشة المسلمين وبالطبع أسلوب عمارتهم للأرض. بالعودة إلى البيئة التي كان لها نصيب كبير في نقاشات العلماء وأبحاثهم خصوصاً المهتمين بالعمارة الإسلامية، لاحظنا أن ردود أفعال معظمهم ركزت على ربط معطيات البيئة في العالم الإسلامي بالمناطق الصحراوية مركزة في غالبيتها على المؤثرات المناخية ودورها في بلورة عمران خاص وفريد من نوعه، على غرار دراستنا هذه فهناك حقيقة مفادها أن الإسلام لم ينتشر فقط في المناطق الصحراوية القاسية المناخ، بل امتد وجوده إلى مناطق كثيرة تختلف إيكولوجيتها تماماً عن إيكولوجية الصحراء "أوروبا، آسيا الأندلس" وإن مثلت الصحراء النسبة الأكبر، كما أن هذه الدراسات ركزت على عمارة المساكن دون سائر الأنواع الأخرى من العمارات "الدينية والمدنية". (20)

بينما نرى نحن أنه لا يمكن فهم العمارة الإسلامية إلا بنظرة أكثر شمولية وأكثر عمقا فالعمارة الإسلامية شكلتها وأنضجتها روافد عدة "دينية ومناخية وحضارية" وهذه الروافد في مجملها تمثل الرؤية الأكثر شمولاً لمفهوم البيئة الدينية والاجتماعية والثقافية، وسنوضح كيف ذلك لاحقاً لأن ذلك سيسمح لنا بمعرفة أسس العمارة الإسلامية ومكوناتها وخصائصها والبنية المجتمعية التي قامت عليها وهذا هو المقصود بالشمولية، أي عدم الاقتصار على جانب واحد وطبعاً كل هذا باستخدام رؤى فكرية مختلفة، ولتحقيق هذا الهدف عكفنا على تقسيم الجانب النظري من البحث إلى مدخل تمهيدي يغطي المستوى العام من الدراسة، ويساعد على فهم العديد من الأفكار والمفاهيم الأساسية المشكّلة لخلفيات البحث كمفهوم المدينة الإسلامية والعمران الإسلامي والمصطلحات المرتبطة بهما، مع تبيان جذور وخصائص المدن الإسلامية واستعراض موجز للعوامل التي ساعدت على تكوينها، مع إبراز حيز للحديث عن تفاعلات ومؤثرات تخطيط المدن الإسلامية وتصميم مبانيها وخواص تلك التصميمات خصوصاً المتعلقة بالمساكن وأهم مراكز التجمع السكاني المعبر عن تفاعل الناس. مسائل كهذه من شأنها تحديد اتجاه الدراسة وإعطاء القارئ صورة شاملة عن تخطيط المدن

الإسلامية "مرافق خدمات" وعلاقتها بتنظيم حياة المجتمعات الإسلامية، ولو بدأنا بتقديم بسيط يهدف إلى تعريف المدينة الإسلامية لوجدنا أن هناك الكثير من الإشارات التي ترجع أصل الكلمة إلى مصطلح "دين" ليس فقط في اللغة العربية بل في اللغات السامية كالأرامية، وارتباطها بمصطلح القانون عند الآشوريين والأكاديين وبمصطلح "القاضي" عند الآراميين "توضيح هذه التفسيرات وردت في القرآن الكريم والحديث الشريف والكثير من المعاجم العربية" هذه التفسيرات اللغوية لمصطلح المدينة يعطي إشارات واضحة تبين كيان المدينة المادي والاجتماعي، والدليل على ذلك قول "ابن منظور" "أن المدينة هي حصن يبني في أصطمة من الأرض وكل أرض يبني عليها حصن في أصطمتها" فهي مدينة من منظور اجتماعي، بعد المادي الذي قدمه "ابن منظور". من جهته ذكر "الفيروز أبادي" أن المدينة تعادل الأمة، وهو أمر يتوافق مع تعريف المدينة وكيفية نشأتها الذي أشار إليه "القزويني" الذي ذكر أنه "عند حصول البيئة الاجتماعية" أي لو اجتمع البشر في صحراء لتأذوا بالحر والبرد والمطر والريح ولو تستروا في الخيام لم يأمنوا مكر اللصوص والعدو ولو اقتصرُوا على الحيطان والأبواب كما ترى في القرى التي لا سور لها لم يأمنوا صولة ذي بأس فأكرمهم الله تعالى باتخاذ السور والخندق والفصيل فحدثت المدن والأمصار والقرى والديار... واتخذوا للمدن سورا حصينا وللسور أبوابا عدة حتى لا يتراحم الناس بالدخول والخروج بل يدخل المرء ويخرج من أقرب باب إليه. (21) لهذا التعريف دلالاته المتصلة مباشرة بالمقاييس والمعايير الحضارية التي تميز المدينة عن غيرها من مراكز الاستيطان الأخرى "فالفيروز أبادي" يشير بصراحة إلى أن المدن لا تقام إلا في حالة تواجد هيئة اجتماعية، وكذا إشارته الصريحة إلى أن المدن لا بد وأن تقوم على أسوار تحصنها كدلالة حضارية على مادية المدن، وطبعا هذه المواصفات طبعت المدن الإسلامية وشكلت حياة سكانها وأبرزت كل ما أحيط بها من إبداع وفن وترف، وأيضا بساطتها خصوصا في مراحل نشأتها الأولى والتي كانت تتناسب مع مكانة المسلمين الاجتماعية، حيث عمد المسلمون إلى تشكيل عمارتهم جراء تأثرهم بحياتهم اليومية وعاداتهم وتقاليدهم، وربما يكون "ابن خلدون" أبرز ذلك في مقدمته بقوله "إن تخطيط العمارة الإسلامية وضعت العادات والتقاليد ضمن شروط عمارتها الأساسية، وهي سمات جعلت المسلمون يتميزون عن غيرهم ربما بسبب اتخاذها أساليب معمارية جديدة تنظم المدن اختلفت عن حضارات الرومان واليونان، والمصريين... إلخ" حتى لو تأثروا ببعض أساليب بناءهم مستغلين كل الإمكانيات التي تتماشى والعقيدة الإسلامية، هذه تعريفات مختصرة للمدينة الإسلامية الهدف منها ليس فقط

تحديد المفهوم، بل إبراز أبعاده وتفاعلاته مع واقع المدن الإسلامية التي ارتبط وجودها بعوامل عدة منها على وجه الخصوص العامل المرتبط بالبيئة الاجتماعية "العوامل الاجتماعية" التي تحكم العادات والتقاليد والقيم، تلك القيم التي ترتبط بسلوكيات الإنسان وعلاقاته بالآخرين والمجتمع ككل. ففن العمارة والبناء لطالما شكّل الصلة الوثيقة في المجتمع، وعليه دراسة أي طابع عمراني لأي مجتمع يستوجب إبراز الحالة العقلية والوجدانية للمجتمع، وكذا عاداته وتقاليدته التي تساهم في إفراز وظهور طراز معماري معين يتميز به هذا المجتمع دون سواه، وعندما نطلق مصطلح "البيئة الثقافية" (22) على الثقافة فإننا نعني بالتأكيد جانباً من البيئة الكلية للإنسان المشتملة على "معرفته وعقائده وفنونه ومقدساته إضافة إلى ما يمارسه من عادات وتقاليد وأعراف اكتسبها باعتباره عضو أساسياً في مجتمعه"، القارئ لهذه الجملة الشبيهة قد يعتبرها تعريفاً للثقافة لكنها تعني تفاعل الإنسان مع بيئته الطبيعية التي يحيا داخلها ومن خلالها يقوم باستيفاء حاجاته الروحية والمادية التي تنطبق حتماً على تماثلاته العمرانية في مجال البناء، بدورها العوامل السياسية التي يقصد بها "مسؤولية الحكم والعلاقات العامة" داخلية كانت أو خارجية تلعب دوراً هاماً في بناء المجتمعات خاصة إذا كانت تطبق بالطرق والأساليب الديمقراطية، فمن شأن ذلك أن ينعكس على النشاط الفكري لفن وإبداع العمارة، والعكس من ذلك إذا ما اتسمت السياسة بالتدهور عرفت العمارة تراجعاً على صعيد العلاقات الخارجية، فإذا اتسمت بالودية ساعدت على تبادل أفكار العمارة وإشاعتها بل وتجديدها وتنويعها ما يساهم في إشباع رغبات المجتمعات العمرانية والمادية، طبعاً بما يتوافق ورغباتها وميولها، بدوره يتأثر الطابع المعماري بالعوامل الاقتصادية التي يعتمد عليها فيما يسمى بالتمويل المادي لعمليات البناء والتشييد والتأثير المباشر على الأساليب المستخدمة، هذا الانعكاس يمس البيئات الحضرية التي تستجيب بدورها للظروف البشرية، وهذا من خلال الظروف البيئية المتمثلة في تطوير الطرق المتعددة للحياة والعالم الإسلامي نموذجنا الحضري عرف منذ القدم ارتباطاً بيئياً في مجال العمران ليس فقط بالمدن بل حتى في البوادي والقرى التي تمارس حرفة الزراعة، حرفة جعلتها لا تعرف الاستقرار ما أعطاها صفة الإغراق في المحلية. وهي الصفات الأساسية للبيئات الحضرية سواء كانت صحراوية أو ريفية، صفات انعكست على العمارة من حيث ثبات العوامل "طبيعية وبيئية" ثبات خلق تكراراً في متطلبات الإنسان بالصورة نفسها تقريباً خصوصاً في البدايات، ما أدى إلى وجود مباني تقليدية وقت الاحتياجات الوظيفية للناس من خلال معطيات البيئة المحلية والخبرات

المتوارثة عبر الأجيال مستغلة بعض الجوانب التي لا يمكن ألا تكون ظاهرة للعيان عند الحديث عن العمارة الإسلامية. (23)

العوامل المذكورة أنفاً تعبر عن فكر وفلسفة عمرانية إسلامية لم تتخذ سبيلها نحو التوسع عن طريق الفقه والتاريخ والجغرافيا والرحلات والمعاجم فقط. ولكنه فكر اتجه نحو العمق في وجهة ليست أقل قوة من الأولى وهي "العملية الفلسفية"، وإذا كانت الوجهة الأولى وصفية تستند إلى الواقع المعاش فإن الثانية كانت تتجه إلى تعميق الفكر العمراني وربطه دائماً بقيمه الاجتماعية وإلى استخراج مبادئه الأساسية من الشريعة ومن طبيعة النفس البشرية ومن مبادئ الاقتصاد والفلسفة وكلما زادت الحاجات الإدارية والمالية تطورت المدن الإسلامية وتوالى نموها وازدهارها وموتها وازداد التمدن وأصبح أكثر عمقا ونموا وتوالداً وتجدرًا، وتوالدت في إطاره الحاجات الفكرية والعملية المرتبطة أكثر فأكثر بالفكر الإسلامي العام، هذا الفكر لم يظهر في بدايات نشأة المدن وهذا بديهي لأنه في البدايات عرف البساطة والتقشف. لكن ما لبث أن أصبح مجالاً يتفاعل مع مختلف الحضارات التي أخذ العرب والمسلمون في استيعابها، ولعل "الجاحظ" كان واحداً من الأوائل الذين ظهر عليهم ذلك "تأثير المدارس الحضارية المختلفة" في كتاباته مثل كتاب الضائع والذي تحدث فيه عن المدن الكبرى "بغداد، الكوفة، البصرة، الفسطاط، نيسابور، مرو، بلخ، سمرقند ودمشق" ويبدو أن ثقافته الموسوعية وضّحت بعض أسس الفكر العمراني الإسلامي المتأثر بالزعة اليونانية. وتستوقفنا محاولة يونانية-رومانية المنبع حاولها "الفارابي" في كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة" (24) وهي رؤية فكرية وفلسفية وسياسية حول ما يمكن أن تكون عليه المدينة، مقتدياً بالطوباويين "أفلاطون" "القديس أغسطين" مع ميزته التوافقية التي جعلته يجمع بينها وبين الأفكار الإسلامية، التي يرى فيها أن اجتماع المدينة هو أفضل أنواع الاجتماع، وأن الإنسان مدني بطبعه وأن الاجتماع البشري سبيله تحصيل الكماليات، وأن الحياة في المجتمع المدني ضرورة لكل البشر فالمجتمعات عند الفارابي نوعان "كاملة وناقصة" الكاملة مجتمعات عظمى والوسطى هي كل أمة على حدة، والناقصة هي تجمعات "القرى والمحلات والبيوت" وهذا الاجتماع جزء من الاجتماع المدني والاجتماع في المحلات والقرى إنما يؤدي إلى المدينة والمحلات أجزاء منها كما أن القرى خادمة للمدينة، فالمدينة هي أولى درجات الاجتماع الكامل والصورة المثلى للملك. والعلاقة المميزة للمدينة الفاضلة عند الفارابي هي شيوع التعاون بين أفرادها واتصافهم بالعلم والنظام وعشق الفضيلة وخضوعهم لمبدأ تقسيم العمل، هذه الأفكار التي

تحدث عنها "الفارابي" تحدث عنها من وجهة نظر إسلامية معبرة عن المدن وأنواعها، لكن هذا المذهب الفكري النظري كان غريباً على المجتمع الإسلامي ولذلك لم يجد صدًى في مجال الفكر العمراني، والدليل فشل محاولات بناء المدن على الطريقة اليونانية في العهد الأموي. ولم ينجح "الفارابي" في إبراز فكره العمراني المتأثر بالفكر العمراني اليوناني، ومن حقق نجاحاً كان تيار التفكير العمراني على أساس إسلامي، كونه مستمد مما هو عملي وواقعي، ومن رواد الفكر العمراني الإسلامي "قداًمه بن جعفر" (310هـ/337هـ-922م/948م) وهو من أكثر المتأثرين بأفكار الأوائل وأبعد ما يكون عن الفقهاء وأفكارهم، فقد قدّم في كتابه "الخراج وصنعة الكتابة" تحليلاً نظرياً للمدينة والعمران وهو المتأثر بدوره بالفكر اليوناني لكنه يتأثر أكثر بالفكر العمراني الإسلامي الذي تحدث عنه في الباب الثاني من كتابه عن السبب الذي احتاج فيه الناس إلى المدن والاجتماع بقوله "لما كانت أفعال الناس المميزة وتصاريها كثيرة مختلفة، وحاجة الإنسان بسببها وبسبب الجسم الذي لم يكن للنفس في هذا العالم بدمنه والسعة منتشرة وتبعث هذه الأحوال والصناعات والمهن فصارت على حسبها في الكثرة، ولم يكن في وسع إنسان واحد استيعاب جميع الصناعات المتفرقة، وكان لا بد للناس من جميعها ضرورة، قادتهم الحاجة إلى الترافد واستعانة بعضهم ببعض ليكمل باجتماعهم جميعهم، ولم يكن بد ضرورة منه لأن هذا يبذل لهذا قمحا يتقوته، وهذا يعمل لهذا ثوبا يلبسه وهذا يصنع لهذا بيتا يسكنه، وهذا ينجز لهذا بابا يغلقه على بيته، وغير ذلك مما لا يكاد العدد يدركه من فنون الصناعات وضروب الحاجات، لأنه لم يكن في استطاعة إنسان واحد أن يكون فلاحاً ونساجاً وبناءً ونجاراً وإسكافياً ولو أنه كان محسناً لهذه الصناعات كلها لم يكف وحده بما يحسنه منها، ثم يجوز بعد هذا كله أن تأتي صناعات لم يكن يتأتى للواحد من الناس النفاذ في جميعها كالطب والفلاحة... هذا إلى أن كلا منها يحتاج إلى أوصاف جسمية وعقلية تنجم عن العوامل المحيطة، ولهذا تنوع الوظائف والمهن التي يقوم بها الناس فتحدث الكثيرة في المدينة وكان علم ذلك ما بقي عند الله، فطر الإنسان محباً للمؤانسة مؤثراً للاجتماع من ذوي جنسه فاتخذ المدائن والأحصار واجتمعوا فيها للتعاقد والتوازن" (25) وهكذا يجعل "قداًمه" ظهور المدينة متصلاً بأمرين:

- تنوع الاقتصاد وكثرة المهن الضرورية لسد الحاجات لدى الإنسان.
- فطرة الإنسان التي فطره الله عليها من حبه الاجتماع مع بني جنسه.

هذه المداخل الفلسفية والفكرية ليست الوحيدة في التراث الإسلامي حول المدينة والعمران، بل هناك الكثير من المداخل التي تستدعي الضرورة الرجوع إليها في مواقع أخرى من الدراسة، لكن قبل ذلك ولتحقيق الهدف من هذا المبحث والدراسة في مجال المدن والعمارة الإسلامية، تم تقسيمها إلى مدخل تمهيدي تم التطرق فيه إلى محاور وضحت العلاقة بين العمارة "المدن" والبيئة خصوصاً الجذور التصميمية التي تعود إلى الحضارات القديمة، وطبعاً ساهمت في بلورة العمارة الإسلامية وإلى تأثير العوامل الدينية التي عدت العمود الفقري للعمارة الإسلامية خاصة على صعيد الخصائص التصميمية للسكن الإسلامي، الذي يأتي على رأس المباني المدنية والتي يتباين أسلوب تصميمها في كل من البيئة الحضرية "المدن" وغير الحضرية "الريفية والصحرارية". محاور تعطي للقارئ فهم أشمل عن الحضارة الإسلامية التي تعد إحدى أهم المحطات في تاريخ الحضارات الإنسانية. وذلك من أجل استجلاء الجوانب التي لا يمكن أن تكون ظاهرة للعيان عند الحديث عن العمارة الإسلامية، فالعمارة الإسلامية تعتبر محطة هامة في تاريخ الحضارات الإنسانية. ولقد قام العلماء والمتخصصون في مجال الآثار والعمارة الإسلامية بجهود كبيرة لمعرفة الأسس المعمارية والحلول الهندسية التي ابتكرتها هذه العمارة، كما اجتهدوا في تصنيف ما درسوا من آثار وعمائر إسلامية منتشرة في كافة أرجاء العالم في محاولة لاستكشاف أوجه الشبه والاختلاف بين طرز العمارة الإسلامية نتيجة لاختلاف التفاعلات الحضارية والتي اختلفت من بيئة لأخرى ومن شعب لآخر. ومن أشهر التصنيفات في هذا المجال تصنيف الأثري الألماني "إرنست كوهنل" (ERENST KUHNEL) الذي أورده في كتابه المختصر المعروف باسم "فنون الإسلام" والذي ترجم إلى العربية، كتاب قام على تقسيم العمارة حسب العصور والأقاليم، والمزج بين هذه وتلك، أما "كريزول" (CRRSWEL) فقد اتبع تقسيماً يقوم على أعمال معينة لا على عصور ومدارس، وبذلك يكون أقرب إلى الوصف التاريخي لأهم آثار العمارة الإسلامية التي ظهرت في منتصف العصر العباسي، وتتبع علماء آخرون تاريخ العمارة الإسلامية مثل "جورج مارسيه" في كتابه "الوجيز في فن الإسلام" الذي يعد من أهم وأشمل ما تم تأليفه في الفنون الإسلامية. (26)

1.3. العمارة العربية الإسلامية:

يعد تطور العمارة الإسلامية جزءاً ومظهراً من مظاهر التطور السياسي في العالم الإسلامي وما لفت انتباهنا عند اطلاعنا على أساليب دراسة العمارة الإسلامية، تصنيفان الأول أنجزه

"جوستاف لوبون" في كتاب ألفه عام 1884 سماه "حضارة العرب" التصنيف الثاني قام به "جون هوج" (HOAG JOHN) في كتابه "العمارة الإسلامية" عام 1877 ويقوم التصنيفين.

1.1.3. تصنيف "جوستاف لوبون" وتطور العمارة الإسلامية:

يرجع "جوستاف لوبون" الاختلاف في فن العمارة العربية الإسلامية إلى اختلاف البلدان التي نشأت فيها وتفاعلت مع سكانها، مقسما تصنيفه إلى أربع مراحل أساسية:

أ. مرحلة الطراز العربي قبل ظهور النبي "صلى الله عليه وسلم": يرى أن هذا الطراز لا يزال مجهولاً باستثناء ما يستشف من بقايا اليمن القديمة ومن البقايا الأثرية التي أقيمت في الممالك السورية القديمة كمملكة الغساسنة.

ب. الطراز البيزنطي العربي: والذي نشأ نتيجة امتزاج المؤثرات الشرقية بالمؤثرات الإغريقية الرومانية، فالعمارة العربية في مراحل تكوينها الأول والتي حدّدها "لوبون" في القرن السابع والعاشر الميلادي تم تقسيم أنماطها العمرانية حسب المناطق والبلدان.

ج. الطراز البيزنطي في الشام: أهم منجزاته قبة الصخرة بالقدس، والمسجد الأقصى في فلسطين والمسجد الأموي في دمشق والتي بنيت جميعها ما بين القرن السابع والحادي عشر.

د. الطراز البيزنطي في مصر: ظهر ما بين القرنين السابع والحادي عشر، من أهم معالمه جامع عمرو بن العاص، وابن طولون، وإن كان "جوستاف لوبون" يرى أن هذه المرحلة عرفت بداية الخلاص من المؤثرات البيزنطية.

هـ. الطراز العربي الإغريقي: من أهم سمات هذا الطراز جامع القيروان، ومساجد الجزائر القديمة وبقي تأثير الفن البيزنطي ثابتاً في هذه المنطقة إلى يومنا هذا خاصة على صعيد تصميم القباب.

و. الطراز العربي الخالص: ظهر في مصر في القرن العاشر والخامس عشر، وبلغ كماله وذروته عام 1468 أبرز معالمه "جامع قاتيباي" ولكنه لم يلبث تراجع بفضل سلسلة تحولات ساعدته على ابتكار أشكال جديدة، أما في الأندلس وعكس مصر تخلص سكان الأندلس من البصمة البيزنطية ومؤثراتها بسرعة، ولم يبق من البنايات التي أقيمت على ذلك الطراز غير ما هو قائم في غرناطة وإشبيلية.

ز. الطراز العربي المختلط: هذه المرحلة عرفت اختلاط بين فن العمارة العربي وفن العمارة الغربي من خلال المباني التي أقيمت، وسنحدد عددا منها في إسبانيا ممثلة في معابد اليهود وفي كنيسة "سانتا ماريا لابلانكا والترنسينو" أو "كنيسة الانتقال"، كما وجدت مباني

تمازجت مع الحضارة الفارسية بعد ظهور الإسلام، ولاسيما مساجد أصفهان، وهناك طرز أخرى اختلطت مع الطابع الهندوسي في الهند ومناطق أخرى. (27)

يلاحظ من تصنيف "جوستاف لوبون" أنه اتخذ من الطراز العربي أساساً لفهم وتصنيف العمارة الإسلامية التي انتشرت في مناطق وبلدان مختلفة، من خلال دراسة تفاعلاتها مع الطرز المعمارية الأخرى بداية من مركز التكوين الأول. والذي جعل فيها التأثير الأعظم للطراز البيزنطي الذي كان قد التقى مع خصائص من الطرز المعمارية السابقة سواء كانت شرقية أم غربية وقد عبّر عن هذه المرحلة بمسمى "الطرز العربي البيزنطي"، وبعد ذلك ننقل إلى ما يمكن أن نسميه مرحلة النضوج وظهور الملامح الشخصية المحددة للعمارة الإسلامية، وهو ما أطلق عليه "الطرز العربي الخالص" (28) وتنحصر هذه المرحلة في إطار زمني ومكاني يسمي "لوبون" تصنيفه "بالطرز العربي المختلط"، ويرى أنه تشكل في شكلين أساسيين من التفاعلات، الأول نتيجة تأثير فن العمارة العربي على غيره من مباني غير المسلمين في الأندلس، والثاني يظهر في تأثير فن العمارة النصراني على فن العمارة العربية. أخيراً سلّط "لوبون" في تصنيفه للعمارة الإسلامية على تأثير الشعوب والدول التي اعتنقت الإسلام وساهمت في بناء الحضارة والعمارة الإسلامية.

2.1.3. تصنيف "جون هوج" وتطور العمارة الإسلامية:

انتهج في تصنيفه للعمارة الإسلامية أسلوباً يعتمد على نظرة أكثر شمولية في التقسيم مستخدماً في ذلك بعض المصطلحات عند دراسة الحضارات الكبرى في العالم الجديد وقد حدّد في تصنيفه ثلاث فترات أساسية:

أ. فترة ما قبل الكلاسيكية (PRE-CLASSIC):

مثلت مرحلة تشكل الفن الإسلامي وشملت فترة الخلافة الأموية والعباسية ودويلات الأغالبة في شمال إفريقيا، تميزت فترة الكلاسيكية في العمارة الإسلامية على حد تعبير "جون هوج" بالاستخدام المكثف والملاحظ للأشكال والتقنيات المعمارية من الحضارات السابقة، إلى جانب انسياب وانتقال الأفكار المعمارية ما بين مناطق العالم الإسلامي، ويرى جون هوج أنه في هذه الفترة وحتى القرن الحادي عشر كانت توجد منطقتان تأثرت العمارة الإسلامية بأساليب وأفكار البناء فيهما.

- المنطقة الأولى: شملت الجنوب الشرقي للأناضول، وشمال سوريا ضمت هذه المنطقة دمشق وما جاورها والرصافة وفلسطين خاصة القدس إلى جانب عمان والأردن ومصر وشمال إفريقيا.
 - المنطقة الثانية: يرى جون هوج أن بداية مرحلتها ارتبطت ببداية انتشار المقرنصات وهي نظام معماري فارسي سريعا ما انتشر في مناطق العالم الإسلامي خاصة العراق.
- ب. المرحلة الكلاسيكية وما بعد الكلاسيكية:

تبدأ هذه المرحلة مع بداية حكم المرابطين وتقابلها الفترة المتأخرة من حكم الفاطميين في مصر وحكم الأيوبيين والسلاجقة الذين أبدعوا الطراز الكلاسيكي للعمارة الإسلامية في هذه المنطقة وأيضا مناطق الأناضول بتركيا والهند. في هذه الفترة عرفت تقنيات وأفكار البناء اتساعا كبيرا وانتقلت أشكاله من مكان لآخر بحرية، باستخدام تقنيات الخزاف والحجر والموزاييك والبلاطات الملونة والجص "الجبس" مثل استخدام السلاجقة لتلك التقنيات بإضافة الخشب، المستمد من تأثيرات العمارة الخشبية الهندسية القديمة. وقد استمرت عملية انسياب الأشكال والأفكار في المرحلة الكلاسيكية المتأخرة، والتي بدأت أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر تميزت هذه الفترة بتقليل مقاييس الخزاف وهو نفس الطراز الذي شهدته الهند.

مرحلة ما بعد الكلاسيكية (POST CLASSIC):

يستعمل جون هوج مصطلح "ما بعد الكلاسيكية" للدلالة على آخر مراحل الابتكارات التي ساهمت في تطوير العمارة الإسلامية، وقد حددها بثلاث فترات حكم في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، وإن كانت متزامنة الأولى: الإمبراطورية العثمانية والثانية: الحكم الصفوي الثالثة: الحكم المغولي في الهند. ولكل إمبراطورية خصوصيتها المعمارية ومواد الإنشاء المحلية المتوفرة في بيئتها مما أعطى كل طراز اختلافا وتميزا ملحوظا مع إعطاء حلول متميزة لبعض المشاكل المعمارية القديمة، وبالرغم من التقارب الجغرافي بين مناطق الإمبراطوريات الثلاث فإن ذلك لم يدعم التبادل الثقافي أو الحضاري. فالأفكار والحرف كانت تنتقل بين مناطق الامبراطورية كل على حدى. إن هذا التصنيف الذي اعتمده "جون هوج" يقوم على رؤيته للتفاعلات الحضارية التي مر بها المعمار الإسلامي على ثلاثة مراحل أساسية الأولى ما قبل الكلاسيكية في القرن الحادي عشر الميلادي وتأثره ببعض الحضارات خاصة البيزنطية التي مثلت مرحلة النضج والاستقلال الفني للعمارة الإسلامية أسماها جون هوج الكلاسيكية

والكلاسيكية المتأخرة انتشرت فيه بعض التفاصيل الزخرفية ومرحلة ما بعد الكلاسيكية تمثلت في عمارة الإمبراطورية العثمانية بعد فتح القسطنطينية والصفوية في إيران والمغولية في الهند. (29)

إن المتأمل للطرز المعمارية بصفة عامة والطرز الإسلامية بصفة خاصة، يجد أنها نشأت بطريقة تلقائية، حيث تفاعل ذكاء الانسان مع بيئته، ولما كانت البيئات تختلف فقد جاءت هذه التفاعلات مختلفة بين بلد وآخر، ومن هنا تبرز أهمية دراسة طرز العمارة الإسلامية بشيء من التفصيل من أجل التعرف على المؤثرات والتفاعلات الحضارية التي اختلفت من بيئة لأخرى وأفرزت طرزا ومدارس فنية مختلفة.

2.3. تأثير العمارة الإسلامية على مباني الغرب:

إذا كانت العمارة الإسلامية قد تأثرت في مراحل نشأتها الأولى بما سبقها من الحضارات القديمة من خلال العديد من التفاعلات الحضارية، فقد استمرت تلك التفاعلات لتصل بالعمارة الإسلامية إلى مرحلة كبيرة من النضج في شخصيتها الفنية حتى وصلت إلى درجة التأثير على فنون الغرب. وقد حدّد "الدكتور زكي محمد حسن" قنوات الاتصال التي أثر من خلالها الفن والعمارة الإسلامية على فنون الغرب في العصور الوسطى بقوله: "وليس مثل هذا التبادل الفني غريبا في شيء فقد اتصل الشرق الإسلامي بأوروبا في العصور الوسطى بواسطة التجار في الأندلس وجزيرة صقلية" وبفضل مشاهدات الحجاج المسيحيين للعمارة العربية في الأراضي المقدسة، ثم بواسطة الحروب الصليبية، فضلا عن اتصال الغرب بالدولة العثمانية التي امتد نفوذها للعديد من الدول الأوروبية خاصة في منطقة البلقان، ويتجلى تأثير العرب على الغرب في مجال العمارة من خلال تمازج فنونهم مع بعضها البعض حيث نشأ طراز عرف باسم "الطراز المدجن"، هذا يدفعنا للحديث عن امتياز المدينة الإسلامية بنسيج عمراني متضامن ومتماسك في بنيته ومكوناته المادية والمعنوية، وقد تشكلت البنية المادية بما يتماشى مع إيكولوجية المنطقة التي تواجدت فيها ما أعطى عمارتها طابع الانبساط التام للأنسجة العمرانية، حيث امتدت تلك الأنسجة بشكل أفقي أعطاهها صورة التجانس مع عدا الشواهد الدينية "المآذن، القباب" التي تبرز مرتفعة فوق سطح الأرض مشكلة شواهد رمزية ولهذا اتخذ لبناء المدن الإسلامية خواص نذكر من أبرزها:

- الانبساط التام للأنسجة العمرانية.
- انفتاح الوحدات البنائية نحو الداخل.

- التكرار إلى جانب التنوع في الأشكال الحضرية.
 - عضوية التكوين العام.
 - وضوح التدرج في العلاقة بين العام والخاص، وهو ما يختلف عن مثيلاتها في الحضارات الأخرى.
 - التلاحم والتضام بين الكتل البنائية وخاصة في المدن الصحراوية التي تقوم على ثقافة عمرانية تتشابه على صعيد الملامح المرفولوجية ولامح الحياة الاجتماعية والمكونات الثقافية.
- ومن الخواص التي ميزت أيضا النسيج العمراني للمدن الإسلامية هو تناقض هندسة خطوط بناءها الخارجية مع الخطوط الداخلية للأبنية العامة، فقد اشتقت المدينة الإسلامية كثيراً من تفاصيلها من المدينة الرومانية التي تأثرت بها فترة بسيطة اكتسبت بعدها شخصيتها المستقلة فالمدينة الإسلامية عبارة عن إبداع ذاتي مستمد من اختلاف حياة الناس وخصوصيتهم التي بدأت اليوم تتراجع بفعل تغلب الغرب والابتعاد عما عرفت به من احتواء داخلي. وبالعودة إلى أشكال البناء في المدن الإسلامية ساهم المسلمون في تنوع أشكال العمارة حسب خصوصية المكان "الجغرافية والاجتماعية" ولعل العمارة الإسلامية بمفهومها البيئي والحضري من أكثر النشاطات تجسيدا للواقع الحضاري للأمة. ولهذا أقيمت المساكن في عصور الإسلام بما يتلاءم مع الحياة العربية في عاداتها وتقاليدها التي كانت في البداية بسيطة المظهر خالية من الزخرفة، تعطي إحساسا بالبساطة ما فتت أن تطورت وظهرت أساليب جديدة في العمارة كان للمساكن القسط الأكبر منها. والمعلوم أن جل المدن الإسلامية امتازت بمناخ شديد الحرارة والقسوة فقد كان لهذه العوامل حساباتها الدقيقة في عملية البناء، التي انفردت بتخطيط يتناسب مع ظروف المناخ ووفر للمسلمين التهوية والبرودة والإضاءة وقد تميزت العمارة الإسلامية بتدخل الشخصية العربية في البناء المستند على روح الشريعة "القرآن السنة" (30) ما منح المسلمين تنظيما حياتيا فريداً من نوعه، قام على الترابط والتوحد ضمن مرفولوجية المكان (31)، وقد كان للتشريع الإسلامي الفضل في تحديد طريقة عيش وسلوك وعلاقات المسلمين الاجتماعية التي وجهوها نحو تصميم عمارتهم. إن هذه العناصر وجدت بدون شك في الحضارات الأخرى، لكن ظهورها في المدن الإسلامية ارتبط بأبعاد جديدة وتنظيمات مغايرة جعلتها تختلف عن باقي الحضارات، وقد أكد "هربرت سبنسر" (SPENCER) على انسحاب السمة الإسلامية على المدن في عصورها المبكرة وصولاً للعصر العثماني. وما أكد

هذه الفرضية هو إنشاء المسلمين لمدينهم بأسلوب يؤكد تمسكهم بدينهم وخصائصهم الاجتماعية وتجاوبهم ككيان حي على الدوام مع تطور حاجاتهم. ولقد تنوعت أشكال المدن الإسلامية وشخصيتها فاختلقت تقسيماتها ووظائفها التي أثرت كثيراً في نمط حياة الناس، لكن الجدير بالذكر ورغم تنوع أشكال المدن الإسلامية إلا أن الغالب عليها هو الطابع الديني "المشتمل على المساجد والزوايا والمدارس والأضرحة" دون إغفال المنشآت المدنية وعلى رأسها المساكن من أجل إبراز الحياة الاجتماعية.

4. البنية العمرانية للمدينة الإسلامية:

لا شك أن التحليل المورفولوجي للمدينة الإسلامية أهمية كبرى لمعرفة مكوناتها، ففي بداية ظهورها لم تكن مرفولوجيتها تمثل الشيء المهم. حيث كانت مخططاتها عبارة عن خليط غير منتظم من الهياكل العامة والخاصة "الأزقة الملتوية التي توجد بداخلها فضاءات وميادين كالأسواق العامة وأماكن إقامة المناسبات الشعبية". إلا أن عدم انتظام البنية العمرانية للمدن الإسلامية لم يدم طويلاً فسرعان ما عرفت سمات عمرانية فريدة، تميزت بسمات مشتركة سواء في المشرق أو المغرب الإسلامي، لأن تشييد المدينة الإسلامية ارتبط بضوابط وشروط معمارية أساسية على رأسها المسجد الجامع والسوق الذي تحدثنا عن أهميتهما ومركزيتهما، إلا أن المدينة الإسلامية احتوت الكثير من المعالم العمرانية التي لا تقل في أهميتها عن أهمية المساجد والأسواق نظراً للأدوار التي تقوم بها. هذا يدعونا إلى الحديث عن أبرز تلك البنى العمرانية على غرار الأسوار التي تحيط بالمدينة من كل الجهات لحمايتها، مدعومة بالأبواب التي تتضمن أسوار ما أعطى المدن الإسلامية طابعها الدفاعي الذي استوجب على المسلمين فيما بعد أن يؤسسوا جل مدينهم بطابع عمراني يعتمد على الحصانة والمتانة المدعومة بالأسوار والأبواب. توسع الإسلام في المشرق والمغرب غير ملامح المدن الإسلامية، واتضح ذلك في تصميم الشوارع وشبكة الطرق الداخلية التي تعد فاعلة في حياة المسلمين، ولهذا أعطوا لترتيب المسالك والدروب والطرق أهمية كبيرة كونها تربط مركز المدينة بأحيائها وبالخارج عن طريق الأبواب، وفي الوقت الذي كانت فيه شوارع المدن الغربية تتميز بانفتاحها من جميع الجهات، فإن شوارع وطرق المدن الإسلامية تميزت بالانغلاق والتفرع والالتواء، وهذا مراعاة لظروف حياة المسلمين المحافظة. وهذا دليل على أهمية الشوارع لدى المسلمين في مجال المحافظة على الخصوصية، ولهذا تختلف أدوارها على الصعيد الاجتماعي، خاصة إذا أخذنا الشوارع الملتوية والأزقة والدروب المغطاة بواسطة سقائف تظلل الطوابق العليا للمنازل الواقعة على جانب

الشوارع موفرة جو من الراحة والهدوء للسكان بعيداً عن صخب الحركة. (32) وتمتد خصوصية العمارة الإسلامية إلى جوانب لم تتشكل من فراغ، حيث تنقسم البنية العمرانية إلى قسمين رئيسيين. بنية خارجية تشكل مظاهر المدينة، وبنية داخلية تمثل المساكن وقد امتاز سكان المدن الإسلامية بحرصهم على البناء وفق أبعاد تقوم على صيانة ديارهم وبناءها على نمط يصون حريمهم من العيون الدخيلة تماشياً مع القيم الأخلاقية والعادات والتقاليد، التي بنيت عليها الأسرة الحضرية الإسلامية، سلوكاً وتصرفات يتقيد بها نظام مسكن الحي في المدينة حتى يستجيب لنظام المجتمع الإسلامي، لأن المدينة كيان حضاري يوفر أسباب الحصانة للسكان ويهدف المخطط العمراني الإسلامي إلى عزل المساكن ووضعها بعيداً عن مسالك النقل الكبرى حتى توفر لأصحابها الراحة وهي ضوابط تفيد مقولة أن البناء في المدن الإسلامية يتميز بعدم التماسك والعشوائية، حيث تشتمل المدينة الإسلامية على طرق ثانوية وأخرى رئيسية وأزقة ملتوية ومتشعبة نافذة وغير نافذة، ويعد الزقاق الممر الخاص المؤدي إلى المجموعة السكنية في الحي الذي لا يقطنه غالباً إلا أفراد قبيلة واحدة أو أسرة واحدة... تشعب الهيكل العمراني للمدينة الإسلامية جعل تقسيماتها الخارجية الممثلة في الطرق تأخذ عدة تسميات كالدروب التي تدخل ضمن مرفولوجية المدينة الإسلامية، والتي تتصل بدورها بالمنازل والمساكن في الأحياء والشوارع وسميت كذلك كونها تحمل في طياتها البعد الاجتماعي على اعتبار أنها تحتوي على أبواب لا يدخلها الغرباء، هذا دليل على أن المجتمع الإسلامي قام على المحافظة على العادات والتقاليد أكثر من ذلك يتحدد التنقل داخل المدينة الإسلامية بواسطة الدروب والشوارع وهذا ما لا نجد له شبيه في شوارع المدن الرومانية التي تميزت بالاتساع والاستقامة والانفتاح. (33) كما لم تتماثل المدن الإسلامية في هذا الجانب مع دروب وشوارع المدن الأوروبية في العصور الوسطى، لأن هذه الأخيرة تتصف باتساعها وتعرجها حتى تكون صالحة لاستعمال العربات، بينما دروب وشوارع المدن الإسلامية ضيقة ومتعرجة ولاسيما منها الطرق الثانوية والمتفرعة من الأحياء.

خلاصة:

إن ظاهرة المدن ليست بالظاهرة الأنية والمؤقتة، فمنذ نشأتها وهي تعرف نمواً وتطوراً في أنماط العمران والبناء وفق مقتضيات عصرها، وأيضاً تحولاً في أساليب الحياة المعيشية للناس من منطلق علاقاتهم الاجتماعية وقيمهم الثقافية، وقد دللت على تلك مؤشرات كل المناطق التي طالتها الحضارة، والتي أثرت في بعضها البعض سواء عند الرومان أو اليونان أو المصريين

القدامى وصولاً إلى المسلمين، كلها معطيات قامت عليها العمارة منذ وجود الإنسان وماتزال مظاهرها راسخة لكن بدرجة عالية من التعقيد، حول العمارة البسيطة الشكل "القصور" المعقدة التوجيه خصوصاً على الأصعدة السوسيو ثقافية.

قائمة المراجع

- 1-التطور التاريخي لظاهرة الحوش في العمارة: مجلة عالم البناء، العدد 202، القاهرة، مصر، 1998، ص 13.
- 2-عبد الفتاح وهيبية: في جغرافية المدن، ط 1، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1973، ص 105.
- 3-محمد حماد: تخطيط المدن وتاريخها، ط 1، د د ن، د ب ن، 1965، ص 255، 256.
- 4-المرجع نفسه: ص 47.
- 5-عبد العزيز جاسم: تأملات الحضارة والاغتراب، ط 1، د د ن، بغداد، العراق، 1981، ص 31.
- 6-المرجع نفسه: ص 266.
- 7-صلاح الدين كشريد: المدينة المسلمة، نشر مؤسسات بن عبد الله، تونس، 2016، ص 32.
- 8-فريد الشافعي: منذنة ابن طولون رأي في تكوينها المعياري، المجلد 14، ج 1، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1952، ص 5.
- 9-عبد الحليم سيد: العمارة التلقائية وأساليب لبناء، مجلة عالم البناء، العدد 100، القاهرة، مصر، ص 25، 26.
- 10-المرجع نفسه: ص 30.
- 11-أنور الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية والسياسية والأدبية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والفنية، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1973، ص 53.
- 12-فؤاد شمس الدين: العمارة العربية الإسلامية ما لها وما عليها، مجلة الفكر العربي، عدد 52، 1988، ص 75.
- 13-أنور الرفاعي: مرجع سابق، ص 55.
- 14-نعمت إسماعيل علام: فنون الشرق الأوسط والعالم القديم، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1979، ص 123.
- 15-المرجع نفسه: ص 213.
- 16-الفاروقي إسماعيل راجب، لمياء الفاروقي: أطلس الحضارة الإسلامية، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، ط 1، مكتبة العنان، 1998، ص 265.
- 17-عثمان إسماعيل: العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية في المغرب الأقصى، ج 1، الرباط، المغرب، 1993، ص 9.
- 18-يحي بوعزيز: وهران مدن تاريخية، ط 1، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، مؤسسة الفنون، 1985، ص 87.

- 19-مصطفى شريحة: محاضرات في العمارة الإسلامية، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة، مصر، 1991، ص12.
- 20-يوسف شريف: تاريخ فن العمارة العراقية في مختلف العصور، دار الرشيد، العراق، 1982، ص423.
- 21-أحمد مختار العيادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية، مصر، 1985، ص100.
- 22-مساعدة بن عبد الرحمان العنقري: المدينة الإسلامية وتطورها العمراني والحضري، سجل أبحاث ندوة تأثير المنهج الإسلامي في التصميم المعماري والحضري، المغرب، 1992، ص93.
- 23-جوميت مورينو: الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة السيد عبد العزيز سالم ولطفي عبد البديع، الإسكندرية، مصر، 1995، ص213.
- 24-جويتين: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ترجمة عطية القومي، الكويت، 1985، ص111.
- 25-المرجع نفسه: ص122.
- 26-AHNED FIKRU, LART DU ROMAN POYET LES INFLUENCES ISLAMIQUES; PARIS; 1934.
- 27-ليوبولدو توريس بالباس: المدن الإسلامية الإسبانية، ترجمة ليودورو لابينيا، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 2003، ص564، 565.
- 28-السيد عبد العزيز سالم: العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها، مجلة عالم الفكر، عدد 1، الكويت، 1977، ص155.
- 29-عبد العزيز أبو الخيل: تطور تخطيط المدن الإسلامية منذ ظهور الإسلام إلى تطبيق الاكتشافات العصرية، مجلة البناء، عدد 2، 1979، ص38.
- 30-أحمد قاسم الجمعة: أهم التأثيرات المعمارية والفنية المتبادلة بين العراق والمغرب العربي في العصر الإسلامي، جامعة الموصل، عدد 9، 1977، ص17.
- 31-السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير في العصر الإسلامي، ج 2، الإسكندرية، مصر، 1966، ص213.
- 32-أحمد مختار العيادي: مرجع سابق، ص88.
- 33-فريد شافعي: مرجع سابق، ص445.